

ناظم حكمت

السجن

بقلم حنا مينة

حكمت الشعرية ، وعن الطابق الخلاق بين القول والفعل عند شاعر كبير ، دفع ثمن هذا التطابق عن وعي ، وعرف كيف يأخذ الحياة بجد ، وكيف يصمد للعذاب في أوت البطيء ، وكيف ينتصر هو الأزل إلا من الإيمان بقضيته والثقة بانتصارها ، على جلاديه الذين تسلحوا بكسل أوت القهر ، وتفننوا في وسائل التعذيب ، وتطلعوا بحقد فاشي رهيب الى قطف رأسه « كما يقطف رأس من اللفت » فلفقوا له التهم ، والقنوء في غياهب السجون ، وتركوا جبل المشنقة يتدلى فوهه طويلا ، ثم عجزوا عن قتله ، وتراجعوا أمام الضفط العالي فاطلقوا سراحه ليهرب من تركيا ولا يعود اليها أبدا .. لا يعود حتى جثة في تابوت ، كي يرقد بمقبرة في إحدى قرى الأناضول كما أوصى .

ان السجون التركية التي دخلت التاريخ مع الشاعر وخصيته ، ود كان عليها ، لو قدر لها أن تحس ، أن ترتجف هلما من ادانة هسنا التاريخ . ونحن الذين نقرأ قصة ناظم حكمت ، ونقشعر من هول ومن غضب ، نقرأ ، في الوقت ذاته ، قصة هذه السجون ، وكانما نعيش فيها من الداخل ، مع انسان ماجد تعلم ، بقوة الارادة ، ان يتجاوز ظاهرة الاحتجاز النهني بفضل نضال يومي واع ، وان يتصل بالعالم الخارجي ، عبر الكلاهات التي صاغ منها أشعاره ، والكلمات التي انطوت عليها رسائله الكثيرة ، الى السجناء وغير السجناء ، والى الناس كل الناس الذين وهب عمره لاجل قضيتهم .

اعتقل ناظم لأول مرة عام ١٩٢٢ بتهمة كتابات ثورية على الجدران ولصق منشورات معادية للسلطة ، وجزاء هذه التهمة الاعدام . لكن ناظم يناضل ، وهو في السجن ، ضد محاولة الاغتيال المدبرة باسم القانون ، ويخوض تضالا بطوليا كي يفضح اعداءه ويثبت برأئسه ، وينجح في ٢١ - ١ - ١٩٢٥ بالخروج من السجن ، مشمولا بالعمو الصادر بمناسبة عيد الجمهورية .

وفي هذا العام يتزوج منور التي كان قد خطبها قبل دخوله السجن ، وستعرف اليها ، في رسائله ، باسم بيراييه ، ويصبح ولداها : محمد وسوزان ، بمثابة ولدين عزيزين له ، وكسان ينادي ابنه محمد باسم « عجلي محمد » لان ناظم لم ينجب اطفالا ، وهو

« لم يكن ناظم يحب التحدث عن السنوات الطويلة والصعبة التي أمضاها في السجون التركية . كان حديثه ، غالبا ، حول بعض ما رافق تلك السنوات من حوادث طريفة » (١) .

بهذه الكلمات القليلة والمنيرة ، ترسم فيرا تولىكوبا ، زوجة ناظم حكمت السوفياتية ، الطين الابي للشاعر السذي أمضى ربع حياته في السجن ، ولم يسمح لنفسه ، بعد خروجه منه ، ان يتخذ من سنوات السجن مادة مباهاة وتفاخر . ظل وفيا لتلك الروح العالية التي تعتبر النضال في سبيل المستقبل واجبا ، والعذابات التي يتحملها المناضل خلال ذلك شيئا من طبيعة الاشياء ، وهذا هو الخلق الكريم للرجسالم الافذاذ الذين كانوا يعدون انفسهم ، في العملية النضالية ، شهداء احياء .

تصنيف فيرا تولىكوبا : « الآن ، أقلب كتابا وصل مؤخرا من تركيا يتحدث عنه . في الكتاب صورة لناظم أخذت له في السجن ، حيث كان واقفا عند جدار الزنزانة ، وقد تكور على نفسه بسبب البرد والهواء الشديد ، وكان يلبس مطفا طويلا باليا ، وحذاء دون رباط ، وهو يضم الى صدره قطة هزيلة ، بينما ارسل بصره بعيدا مفكرا » .

الصورة التي تتحدث عنها فيرا أخذت في سجن بروصه ، حيث أمضى ناظم أطول سنوات حكمه ، وكتب منه الى زوجته بيراييه قائلا : « لقد طال السجن هذه المرة : ثماني سنسوات ! » ، وحيث وجه الى صديقه وزميله في القضية كمال ظاهر كل تلك الرسائل التي جمعت ونشرت بعد وفاته ، والتي سنعرض لبعض منها في هذا القسم من الكتاب ، في محاولة لاتارة جوانب من حياة الشاعر في السجن ، الحياة الحافلة التي قضاها وهو يناضل ، بالعمل والقلم ، لكي يكون جديرا بالرجال الذين هو في صفهم حسب تعبيره .

لقد تحدثت ، في القسم الاول من هذا الكتاب (٢) ، عن قضية ناظم

(١) حكايات من حياة ناظم حكمت ، ترجمة عرفان عبد النافع - جريدة « البعث » السورية .

(٢) هذا المقال هو فصل من كتاب يصدر للمؤلف هذا الشهر عن دار الآداب .

الاحكام التي صدرت عليه تجاوزت مدتها نصف قرن ، وكانت تتوالى
بتهم مختلفة .

ان هذا القسم من الكتاب سيتناول حياة ناظم حكمت في الفترة
الثانية من سجنه ، التي امتدت اثني عشر عاما متواصلة ، وتنقل
الشاعر خلالها بين السجون التركية المختلفة ، من استانبول السى
نشافيري الى يروصه ، حاملا خشبة صليبيه ومرتفعا على المعنى الذي
أراده أعداؤه ، ليعطي ، في صموده ، دلالة على المعنى الآخر ، الاكبر ،
الذي تمثله خشبة الصلب اذ هي راية مفاداة .

لقد قبض على الشمس بيدين اسطورييتين ، وانصهر بالحرارة
الحية فيهما ، معانقا في نساميه مصدر النور ، مانحا ، على نحو
قليل نظيره ، خصلات من اشعتها ، كي تثير ظلمات الزنانات لاولئك
الرجال - والنساء أيضا - الذين كانوا يدفعون من عذاباتهم مهرا غالبا
لحرية الفكر وكرامة المبدأ .

وبمقدار ما كانت سنوات سجنه مريرة ، كانت ميدحة . انه
يفهم ، حتى بعد اندحار الفاشية في الحرب العالمية الثانية ، انفاشية
جديدة ستظهر ، وان سجنه سيطول ، لذلك يوصي صديقه كمال
ظاهر بالعمل المفيد من داخل السجن . ورغم آلام المرض ، والابواب
العديدية الوعدة ، والجو الرصاصي الثقيل السذي يطالعه من
النافذة ، والحر الشديد الخانق في الصيف ، ومرض ابنه محمد
بالسل ، والتواطؤ على قتله بيد بعض السجناء ، فقد ظل متفائلا ،
محبيا للحياة ، مهتما بكل ما يدور من حوله في السجون التركية ، وما
يدور خارجها في وطنه والعالم ، يكتب ويترجم وينظم الشعر ،
ويساعد زملاؤه السجناء ، وزوجته وولديها ، ويناضل ، عبر ظروف
صعبة ومعقدة ، ضد الظلم الواقع عليه ، ضد « عدالة » خاطئة ،
ضد كل ما يشوه الحياة ويجعلها تقيسة الى حد مربع .

ان اشعاره التي تستمد نسفها من روح شعبية ، وتجسد حلما
شعبيا ، يزيدا وعية عمقا ، ويكسيها مفهومه الجدلي بعدا اناسيا
 واجتماعيا ، وتأتي معرفته الواسعة بتاريخ بلاده ، وحكاياتها الشعبية ،
واساطيرها ، وناسها الذين فهمهم على نحو أفضل في السجن ، يأتي
كل ذلك ليفني قصائده ، ويجعلها قادرة على التوحيد بين الانسان
والطبيعة ، وبين الذات الفردية في أدق خلجاتها ، والذات الجمعية
في أخفى ، واطهر ، منسرباتها وتطلعاتها البشرية ، وهذا ما جعل
لشعره ذلك الوقع الساحر على سامعه ، حتى كان السجناء يكون
وهم يصفون اليه .

وقد استطاع ، بدقة ملاحظته ، وخبرته الطويلة بالسجن ،
ومعاناته وجبه الكبير للانسانية ، أن يفهم الانسان على نحو شديد
الشفافية ، شديد السبر ، بالغ الاهتمام بالمعنى الحي لشعره
الدينية تحت تراكمات الجهل والفقر والظروف المبهمة ، فكان يحاول ،
في كل ما يعمل ، أن يكشف عن تلك المشاعر ، ويفجرها ، ويوجهها
وجهة كفاحية واعية .

وسنجد ، من خلال اشعار ناظم حكمت ورسائله ، ومن خلال
اقواله وتصرفاته في السجن ، انه استطاع ، بقسوة ارادة خارقة ،
أن يرتفع على الشدائد ويتقلب عليها ، وأن يفهم دوافعها ويكسافح
ضدها ، وأن يحتج على الظلم ، بالف شكل للاحتجاج ، وأن يتجنب
اليأس ، بالف شكل للتجنب ، وأن يصوغ مفهومها « للسجن » ،
تمتزج فيه كبرياء الصبر بكبرياء المقاومة ، وأن يجعل من مفهومه هذا
تطبيقا عمليا خلافا لحياته .

لقد كسر ، ذات يوم ، قلمه الوحيد الذي يكتب به ، وبدلا
من التشاؤم ، عثر على نقطة التفاؤل العجيبة في هذا الحدث الصغير ،
ولكن الكبير بالنسبة اليه . استنتج انه لن يستطيع الحصول على
قلم حبر جديد الا بعد خروجه من السجن ، ولانه لا يمكن ان يبقسى

يعترف بذلك في رسالته المؤرخه في ٣ - ٣ - ١٩٤١ الى صديقه
كمال ظاهر قائلا : « انني لم أعرف الاستمرار البيولوجي . . لسبي
بالفعل طفلان أحبهما كثيرا ، لكنهما بيولوجيا ليسا من صلبني » .

وقد ظهر منذ مدة كتاب يضم رسائل ناظم حكمت الى زوجته
منور ، ونشر بعض الصحف أن بيراييه هي غير منصور (١) ، وان
بيراييه زوجة وداد عرفي ، الرجل المقامر الذي ابتعد عن زوجته
وظفليه أربع سنسنوات ، قضاها في باريس والقاهرة ، حيث قام
بتجارب سينمائية خائبة ، وان ناظم تزوجها ، ثم أحب في آخر أيام
سجنه منور ، وتزوجها بعد أن طلق بيراييه عام ١٩٥٠ ، وتتشهد
هذه الصحف على ذلك برسالة من ناظم الى بيراييه يقول فيها :

« ربما هذه آخر رسائلي اليك . أعرف انني لم أعطك حقا
جزء صبرك واخلاصك ، لم أكن زوجا مخلصا لك ، أعرف الآن انني
لم أكن زوجا مخلصا لك ، أعرف الآن انني لم أعد زوجك ، ولا أخاك ،
ولا طفلك الذي يحتاجك الى حد الموت . لقد خنتك تزوج ، لكنني
كنت دائما صديقا مخلصا لك . أنت تطلبين مساعدتي بصفتي صديقا
لك . مدي لي اذن يدك الصديقة يا بيراييه ، زوريني يا بيراييه .
لكن هذه الزيارة باية صفة كانت ، زوريني » .

« ان تمدي يديك الى غريق يلفظ أنفاسه الاخيرة فسي يثر
عميق ؟ » .

ان هذه الرسالة ، في رأيي ، لا تقدم أي دليل يثبت ان بيراييه
ليست منور ، فناظم الذي كان في السجن لم يكن يستطيع خيساته
زوجه مع امرأة أخرى ، حتى لو أراد ذلك ، وسبب الرسالة يعود
الى جفوة من تلك الجفوات التي كانت تقع بين الشاعر وبينها ، والتي
أتى على ذكرها أورخان كمال في كتابه « ثلاث سنوات ونصف من ناظم
حكمت » في السجن (٢) .

ومما يؤكد هذه الحقيقة كون منور هي أم محمد ، ابن ناظم
الذي وجه اليه كثيرا من القصائد بعد خروجه من تركيا ، وان منور
التي ظلت على حب ناظم الكبير ، هي التي ألهمته اشعارا خالدة ،
تشكل كل شعره الغزلي تقريبا ، وان الفراق الذي وقع بينهما كان
بعد خروج ناظم من تركيا ، حيث استوطن الاتحاد السوفياتي وتعرف
بغيرا توليكوفا وتزوجها .

لقد أمضى ناظم ومنور ثلاث سنوات من الحياة المشتركة ،
اللاي بالحب والفرح والكفاح ، امتدت بين فترتي سجنه الاولى
والثانية . ففي عام ١٩٢٥ خرج من السجن وزوج منور ، وكان يعمل
كمترجم للافلام في استديو « لالا » ، لكن سعادتهما لم تطل ، فقد
قبض على ناظم في ١٧ كانون الثاني ١٩٣٨ ، بتهمة محاولة قلب نظام
الحكم في تركيا وتعاونه مع بعض المتبردين في الاسطول ، وتحريضه
لهم ، وظل في السجن الى عام ١٩٥٠ ، حيث انتزعت موجة الاحتجاج
العالمية كما هو معروف ، ولولاها لبقى في السجن ومات فيه ، لان

(١) أكد لي كثير من أصدقاء ناظم حكمت الاترك ان بيراييه هي
منور ، وان ناظم تم يتزوج غيرها في تركيا . ولم أجد في
رسائله الى صديقه في السجن كمال ظاهر ، أيما ذكر لزوجه
أخرى . وقد ورد اسم منور في إحدى رسائل ناظم قبيل
اضرابه عن الطعام وخروجه من السجن ، اذ يقول انها قامت
بجمع التواقيع على عريضة تطالب باطلاق سراحه ، وربما كانت
منور أخرى غير زوجته أم محمد (ح . م .) .

(٢) كذلك أتى ناظم على ذكر هذا الخلاف مع بيراييه في رسالته
الاخيرة الى كمال ظاهر ، لكنه لم يذكر ابدا انه أحب امرأة
أخرى ، أو اعتزم الزواج بها (ح . م .) .

بدون فلم ، فان الافراج عنه بات فرياً .

وهم ! لكنه وهم في حساب الحمام ، والحلم حين يكون قسابلًا
للتحقق ، يصبح مادة أمل وعمل ، ومشاعر فرحة خسبة تعطي العافية
للنفس البشرية في كفاحها ضد اليأس والتسوح والذبول .

اننا سنمضي الآن في رحلة فير قصيرة مع ناظم ، وسيكسون
انطلاقاً معه من سجن بروصه ، هذا الذي يصفه لنا في أول رسائله
الى كمال طاهر ، صديقه في سجن تشانكييري :

عزيزي كمال (1) !

« ها أنا في سجن بروصه . النوافذ والجدران والمسرات
المحصبة هي نفسها دائماً . لم تشخ ولم تتبدل . حتى أنني التفتت
بعض الوقوفين الذين ما يزالون هنا . لقد وجدوا أنني شخت ،
ووجدت أنهم شاخوا كذلك .

لكم وصفت لك هذا السجن : بناء على شكل طائرة ، وغرفتي
في الطابق الثالث ، الى اليسار ، في آخر نقطة منه . انها غرفة
صغيرة ، بل أصغر جداً من غرفتي في سجن تشانكييري ، تقيم فيها
نحن الاثنين ، أنا وزميل يدعى كمال . نعم ، كمال مثلك . وليس اسمه
الذي هو نفس اسمك فقط ، بل ان له أشياء كثيرة تذكرني بشبابك :
حبه للشعر ، حماسه المواره . انه محكوم بالسجن بموجب المادة ٩٤ .
وقد لا يشبهك في شيء سوى الاسم ، ومن الجائز أنني أنا الذي
احتاج للبرهنة على مثل هذا التشابه الموجود بينكما ، ما أهمية
ذلك . أنني راخي زميلي في هذه الزنزانة ، ونستطيع أن نتكلم عنك ،
كما لو أنني ، اتكلم معك . وقد بلغ هذا التماثل ذروته أمس مساء ،
فخيل اليّ ان الباب سيفتح وانك ستدخل منه .

يتحدث ناظم حكمت بعد ذلك عن معارفه في سجن بروصه ،
ويختم رسالته قائلاً : « اعن بنفسك يا كمال ، لا تعرضها للبرد ، ولا
تدع الزكام يصيبك ويهزل جسمك ، فقد فارتقت وانت كالبلوطة ،
وأمل أن الفاك كالبلوطة واسمن قليلاً .

« تحيات مفعمة حيننا الى كل الذين يسألونك عن أخباري ،
والى الذين يفكرون بي ، اقبلك ، أخي » .

ان هذا الانتقال ، من تشانكييري الى بروصه ، قد سعى اليه
ناظم بالحاح لوجود حمامات معدنية في المدينة ، يستطيع أن يتصالح
فيها من « العرق الانسر » ، حين تتوفر لديه النقود ، وما اندها ..
واذ يتم النقل يروح ناظم يتوجع لفراق كمال ، زميله في السجن وفي
القضية الادبية والسياسية على السواء ، الذي كان يدعوه ولدي :
« جادت بيريابه وعادت . لم نضع شيئاً سوى الكلام عنك . لقد
شعرنا اننا عاجزان لان لنا ولدا عمره اكثر من ثلاثين عاماً . لكننا شعرنا
ايضاً اننا شباب جسداً ، لان لنا ثقة كبيرة فيسه » .. « مضحك
يا كمال ! أنني أسأل نفسي غالباً ، لماذا لست عجوزاً جيداً ، ولماذا
لم تكن أنت ابني الأشد ذكاء ، ابني العظيم ؟ » .

« كمال ! أجد ما يقلقني بسبب الرطوبة في غرفتك ، فإذا كان
من غير الممكن أن تأتي الى هنا بسرعة ، فاستخدم « منقل » نار ،
ولكن احذر خطر الاختناق بفاز الفحم » .

« كمال ! كنت سعيداً جداً حين علمت بانك وضعت في زنزانة

(١) كمال طاهر ، المعتقل كناظم حكمت ، وللأسباب السياسية
ذاتها ، الذي سيفقد ، بفضل تشجيع ناظم له ، من أبرز
الروائيين الأتراك . انظر كتاب « من الأمل الى ما يجعل الإنسان
يبكي غضباً » ، الطبعة الفرنسية ، ترجمة منور انداش عن
التركية .. وقد عربنا مقتطفات مسن رسائل ناظم عن هذه
الطبعة ، الدكتوردة نجاح المطار وأنا . (ح . م .)

جديدة ، لكنني حزنت لانهم أخذوا منك الراديو . هنا توجد اذاعة
داخلية في عدد كبير من الغرف ، ولدينا أيضاً محطة اذاعة مشتركة
في الجهو . تحياني الى رفاقتك في الزنزانة ، وإذا كانوا يحملون لك
التقدير واودة ، فسيسمنون سجيناً آخر على بعد مئات الكيلومترات ،
لا يعرفون اسمه » .

« سيكون رائعاً يا كمال أن أعيش أنفاً لانف مع بيريابه ومعك ،
ومع زميلي طالب الجامعة القوزاقي (الذي حدثت عنه) في هذه
الغرفة من غرف سجن بروصه . معكم فقط وليس مع الآخرين . أنا
مسرور من رشيد كمال ، وكل يوم أزداد سروراً به . وليس ذلك لانه
لا يرتكب حماقات ، فهو يرتكبها بكثرة ، بل لان الحياة معه في غرفة
واحدة لا تزعجني أبداً . اعتقد أنني أستطيع أن أعيش معه عاماً او
عامين ، حسب الحاجة - وليجف لساني - في هدوء تام » .

ان رشيد كمال ، الذي سيصبح ، بفضل مساعدة وتشجيع
ناظم حكمت ، الكاتب أورخان كمال والذي كان يعيش معه في زنزانة
واحدة ، قد كتب كتاباً عن حياة الشاعر في سجن بروصه ، عنوانه
« ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (١) وقد وصف في هذا
الكتاب كيف وصل ناظم الى سجن بروصه :

« كان ذلك في شتاء ١٩٤٠ ، كنت أعمل في تنظيم « دفتر
السوايق » لقم السجن . وذات صباح ، وفيما كان الكاتب يقلب
الأوراق الواردة حديثاً قال : « أوه .. لدي خبر مفرح » .

نظرت اليه بحيرة .

- أستاذك فادم .

ذهلت لانه لم يكن لي أستاذ .

قال : أتخدمني ؟

قلت : لا ، ولكن ليس لي أستاذ .

- يا حبيبي ... انه ناظم حكمت .. اليس أستاذك ؟

لم أصدق . قدم اليّ مذكرة كانت في يده . تناولتها : حقاً
انه في الطريق الينا . انسه يشكو من « العرق الانسر » ، ويرغب
بالمعالجة في الحمامات المعدنية » .

« كان النهار رصاصياً ، والثلج يغطي أوراق الزنبق الأخضر
في حديقة السجن ، واليأس من خروجي من السجن ، لطول مدة
حكومي ، يزيد من ضيقي ، غير انه سرعان ما تغيرت مشاعري هذه ،
وانجلت كالغيوم عند شعاع الشمس .

« لم تكن بيننا اية معرفة او صداقة او مجرد تحية ، كما
لم يكن ثمة احتمال أن نغدو « رفاقاً » في يوم من الأيام . كنت ،
مثل الجميع ، أفتقد غيابه ، ومثلهم لا أدري السبب بالضبط .
ربما لأنني أخاف عليه ، أو لان معرفتي به بسيطة ، ومهما يكن فقد
كنت أحبه وأحب فته العظيم » .

كانت معرفة رشيد كمال بناظم سماعاً . الاذن تعشق قبيل
العين أحياناً . القلب كذلك . ان الذين يهبون حياتهم للناس ، نضالاً
وأدباً وفناً ، يصيرون في الأحياء الى الناس ، معقد رجاء ، ومسحة
عزاء في الشدة . والسجناء في تركيا ، الذين التقوا ناظم في
سجن التوقيف في استانبول ، أو عايشوه في السجن المختلفة ،
أو سمعوا به من السجناء الآخرين ، أو قرأوا شعره المتداول بينهم
كالخبز الأبيض ، هؤلاء ، جميعاً ، كانوا ينظرون على رجاء : أن يروه

(١) ترجم هذا الكتاب الى العربية الاستاذ جوزيف ناشف وراجعه
الاستاذ علي الطنطاوي ونشرته مجلة « الموقف الادبي » - كانون
الثاني ١٩٧٥ - وقد اعتمدت عليه في بعض المقاطع من هذا
القسم ، وأغنتم هذه المناسبة لاشكر الزميلين وأنوه بجهدهما .

مرة ، وأن يشدوا على يديه ، ويقدموا له خدمة صغيرة ، أو يقولوا كلمة ، هي في مقابل عطائه الكبير ، تحية قلب الى قلب .

نجاتي ، في سجن بروصه ، كان من هؤلاء . لقد تعرف الى ناظم في سجن التوقيف في استانبول . أحبه جداً ، وحدث السجناء في بروصه عنه . كان يكتب الشعر أيضا مثل كمالي ، ومثل عزت ، زميلهم الثالث ، وكان قدوم ناظم بالنسبة اليهم شيئاً كبيراً ، لانهم سيصرفون رأيه في ما يكتبون من شعر ، وسيكونون على مقربة من انسان قال نجاتي عنه : « ان له سمات الرجال العظام المشهورين » .

الفرحة تضج في صدر كمالي . انه يمتلك خيراً أكبر منه ، أكبر من وجوده وكيانه ، ولكي يتخفف ويهدأ ، يترك عمله ، ويركض بين طوابق السجن ، مندفعاً بقوة غير عادية .

« قابلت نجاتي عند غرفة « المواجبة » قرب الشبك الحديدي في الطابق الارضي ، حيث كان يعمل في ادارة تنظيفات السجن . قلت له : « هل تعلم ان ناظم حكمت قادم الى هنا ؟ » . لم يصدق . اقسمت له . صقق مثل طفل صغير ، وانطلق يصيح : « يعيش » . وقال : « يجب ان اطلب من عزت الا يضايقه بالذهاب اليه ، وقراءة شعره أمامه ، فهو يكره ان يزعه احد . لا يجوز ان يسأله عن كل شاردة وواردة .. وربما كان من الافضل الا نخبر عزت ، خشية ان يقول ناظم « آي » ويحمل امتعته ويتنقل الى زنزانه اخرى » .

غير ان كمالي يعجز عن كتمان السر . يركض ويخبر عزت ، ويخبر السيد أمين ، وبعد قليل كان خبر وصول ناظم قد سرى بين جميع السجناء . وقال نجاتي : « يا رجل ! لا يمكن للعهد ان يتل في فمك ! » . وشرعاً يتحدثان عن ناظم :

– هل استمعت اليه وهو يقرأ الشعر ؟
– استمعت .. عندما يقرأ الشعر يحس الانسان بانفجالات تتماوج في أعماقه .. واذا ما أخذ طفلاً يبكي بين ذراعيه سكت الطفل فوراً .

وراح نجاتي يقص ، كعادته ، الحكايات عن ناظم .. يخترع بعضها ، وينقل بعضها الآخر سماعاً ، ويجد في ذلك فخراً وزهواً على الآخر .

وبعد أسابيع ، فيما الثلج يتساقط ، والدنيا رصاصية ، يركض نجاتي الى كمال وهو يلهث :
– لقد احضروا ناظم حكمت قبل قليل ..

يقول كمال : « كنت في رئاسة القلم ، بجانب دفتر السوابق ، فسقط القلم من يدي ، وعاد اليّ نجاتي يقول :

– لقد ادخلوه عند السيد المدير .. حدثك عنه طويلاً ..
نعال فهو الآن على وشك الخروج .

« أمسكني من يدي وخرجنا . كنت منفلاً الى درجة انسي احسست بالسطح يدور فوق رأسي . وفي زاوية من القاعة البيتونية ، العائدة لادارة السجن ، لفت نظري الى الافراض الوجودية : فماش برتقالي مصنوع من الشعر حزم به فرائسه ، وحقيبتان عتيقتان وسله . انه انسان مثلاً ، يفكر بغير انشعر أيضاً .. لكنه ، على أية حال ، فوق مستوى البشر – قلت في نفسي – انه نابغة .. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أرى سوى نابغة واحد ، كلما اتجهت أفكارى الى التابغيين ..

« كان على وشك الخروج من غرفة المدير و .. (على رأسه قبعة سوداء) كلا (لم تكن قبعة ، بل هو خروف ضخيم مشقوق البطن) أو ربما (يبدو جالساً بكبرياء الى جانب دفة السفينة كما ذلك البخار في قسيده بحر خزر) .. انه انسان تركي على شكل بودا ، يقف بعظمة الى جانب دفة السفينة » .

« صرّ باب غرفة المدير وانفتح . حبست انفاسي . جحظت عيناى ، وحددنا الى امام ، كانهى انتظر ان ارى هيكلاً عظيماً من المرمر . لحظة .. وكنا وجها لوجه .. ثم التقت اعيننا . كان يضحك بركة ، ضحكة تذكرك ، بغير شك ، بطفل نظيف ، ناضج ، صديق حقيقي .

« كان يفكر بالشيء الذي عليه ان يفعله ، ثم بدأ يبحث عن وجه يعرفه ، وأخيراً لمح نجاتي ، وعندما همّ بالتوجه اليه اسرع نجاتي وعرفني به . تصافحنا بحرارة ، وبدأت عيناه التركيتان تنتقلان بين الموجودين في القاعة ، وكانوا كثيرين .. بعضهم تعرف عليه في سجون أخرى ، وبعضهم سمع باسمه فقط ، وكان ناظم ، ما ان يلح شخصاً يعرفه ، حتى يسرع اليه ويعانقه ، كوالد وولد طال فراقهما . « آه يا أخي العزيز .. انت ! » كان يقول ، « وانت ايضا ! » ويسال كل واحد عن قصيته ، وأحواله وبيئته ، وعما اذا كان يتلقى مساعدات ، وعن استثنائه أو تمييزه ، وكان يبدو كأنه يتابع ، عن بعد ، قضايا هؤلاء الرجال .

ويتجه الى « رمزي المجنون » ، النحيل ، الحافي ، المرتجف من البرد ، ويسأله :

– .. ان حكموك ثلاثين سنة ؟ ولم كسل ذلك ؟ هل قتلنا احداً ؟ هل يقتل المرء انساناً آخر في السجن يا رمزي ؟ ماذا ؟ حرّضوك ؟ ان قتلته نتيجة التحريض ؟ اهلاً معقول يا رمزي ؟ ايليق بك يا ولدي ؟ هل يقتل المرء من أجل سبع ليرات ؟ نعم .. انه الجهل ، لكنك جددت الثلاثين سنة مرة أخرى .. هيا ، هيا .. لا يجوز مثل هذا ، انت انسان طيباً ، فلماذا تجور على نفسك ؟

ويتجه نحو شخص آخر ، يسأله عن صحته وعن ماكينات الجوارب والخيوط ، ويأتي دور السيد أمين ..

– آه يا سيدي ، يا أميني العزيز ، يا استاذي ، يا عزيز روحي .

ويقول حارس قروي ، متوجهاً الى زميله :
– يا له من رجل حي !

وفي تلك اللحظة يأخذ رئيس الحرس والحراس بتفتيش اغراضه ، وبعد الانتهاء من تفتيش احدى الحقيبتين ، يسحبها ناظم ويفتحها . كانت فيها أوراق ، ودفاتر ، واقلام ، وفراش ، ودهان زيتي ومائي ورسوم ، اخذ يرينا اياها وبشرحها لنا ، ثم يرينا صوراً ويقول :

– هذا هو كاتبنا كمال طاهر .. وسيكون في المستقبل من اقوى كتاب الرواية الاتراك .. وهذا محمد المصري ، كان مصوراً فسي سجن تشانكيري ، وهذا محمد كلجي بطل احدى قصص كمال طاهر الكبيرة . ويتخذ وجهه طابع الجدبة ويقول :
– ان شعبنا التركي ذكي ، مدهش .

« كانوا قد جهزوا له زنزانه انفرادية فسي الطابق الثالث ، فحملنا بعض اغراضه وتركناه بعد رجاء يحمل الاغراض الاخرى ويسير خلفنا . صنعنا سلام ، دخلنا من ابواب حديدية متشابكة . مررنا بدهايز مظلمة ذات رائحة كريهة ، وراينا السجناء مجتمعين ومنفردين ، ثم بلقنا الزنزانه فوضعنا الاغراض فيها .. » .

في هذه الزنزانه سيعيش ناظم حكمت سنوات طويلاً من عمره . ان هذا الانسان المحبوب حتى من اعدائه ، كان في وسع اي سجين ان يتحدث معه بسهولة وراحة . وقد شعر كمالي بالقرب منه ، لاول وهلة ، لانه كان يسيطر عليه مثل هذا الشعور امام المشهورين ، غير انه ، بعد مضي ساعتين ، كان صديقه ، وبعد فترة طلب ناظم من ادارة السجن ان ينقلوا كمالي الى زنزانه ففعلوا ، وراح هو ، بعد

ذلك ، يرتب أوقاته ، بما أشتهر عنه من دقة وتنظيم ، متابعا على هذا النحو كفاحه السياسي والادبي من قلب السجن .

« كمال !

« زميلي في الزنزانة فتى حسن النشأة ، يحب الادب والشعر ، ونحن نتفاهم جيدا ، وهو يهديك صداقته .

« عليّ ان اخبرك كيف تنقضي أيامي حاليا . في الساعة الثامنة صباحا تفتح الأبواب . اذهب الى التواليت فاغتسل ، وابتال الانظار وأنتزه حتى التاسعة ، في التاسعة بعض القراءة ، وغالبا قراءة لتحسين فرنسيتي مثلك . في العاشرة أنصرف الى الرسم ، والى ان يهبط الظلام ، ابي الى حوالي الخامسة ، أرسم . تطلق الابواب في الثامنة ، وحتى ساعة اغلاقها آتدش مع أمين والآخريين . وبما انه ليس لديّ ما أقرأه ، أنام في التاسعة . هالك كيف تمضي حياتي في السجن . انبي لا اكتب الشعر ، ولا أدري لماذا ، لكنني احسّ أن امتلاء يحدث في داخلي ، وعندما أفرغه قد اكتب أشياء جيدة .

لا أستطيع ان اكتب دائما الى نوري ظاهر (1) . ساكتب له غدا ، واطلب منه ان يبعث اليّ بصورته النصفية ، على الا تكون صغيرة جدا ، وسارسم له ، بالوان معننى بها ، صورة جميلة .

صدقتي يا كمال انني مستعد ان أدفع كثيرا لاكتب رسائل مثل رسائلك . لو كنت قادرا ، بدل الرسم ، ان اكتب رسائل جميلة اليك !

غالبا ما اسفت لانه ليس لي اخ . الآن لديّ اخوان : نوري ظاهر وأنت . لا تستطيع ان تتصور ، آتت الذي لك شقيقان ، السى اي حد انا سعيد بالتفكير بك من بعيد ، كاخ أكبر ، غير انه يمكن ان تأسف أنت أيضا لانه ليس لك اخت .

لشد ما أرغب ان ارى ثانية سجن تشانكيري ، والموفوفيين هناك ، وغرفتنا ، وكل تلك الاشياء . ان بي حيننا الى ذلك . حانوت « مودرن » الصغير ليكيير الغياط ، ورشة النجارة ، والفحام الصغير ، كانت تلك أوقاتنا سعيدة .

حالي ليست سيئة هنا . غير ان هذا لا يكفي . المهم هم الناس ، الانسان .

ببراييه تبعت اليك بكل صداقتها . لقد سلموني رسالتك يوم الاثنين ، حين كانت هنا ، وقرأناها معا ، فاندفعت الدموع الى عينها ، وويختني لانني قبلت بالجزء الى بروصه وترتكك هناك . غير انها تعزت حين قرأنا المقطع الذي تحكي فيه عن مدى ارتياحك الى المدير الجديد ، وقالت لي : « كمال ! انه بمثابة ابن عظيم . انه مثل بكري محمد ، وأنا سعيدة حين أفكر ان لي ابنا عظيما بهذا الشكل ، من ناحية اخرى فان حزنا ناعما يتناوبي حين ارى السى اي حد شخنا ، أنت وأنا » .

في اليوم التالي تسافر ببراييه تاركة ناظم في زنزانته مع رشيد كمالى : تدعه هناك ، في سجن بروصه ، وراء ستة أبواب : « آه يا أخي .. ما هذا ؟ أبواب وراء أبواب ، واقفال على اقفال ، بالله كم بابا يفلقون وراءنا ؟ » .

ويصمت كمالى ! هو يعرف ، أو سيعرف ، ان لدى ناظم مادة دائمة للاحتجاج ، ولكن ليس لديه مادة للياس .

« سيرى احدنا الآخر يا صدقتي ، سيرى احدنا الآخر . سنصحك جميعا للشمس ، وتعارك جميعا أيضا .

(1) نوري ظاهر شقيق كمال ظاهر ، ومحكوم لنفس الاسباب في سجن سينوب .

« هناك كما تذكرت في هذه اللحظة ، اغنية لموريس شيفالييه : وداعا ، لا ، سنرى بعضنا ثانية ، وداعا ، لا ، الى اللقاء .

« كمال !

« يتبدى مزاجك رضيا دائما عندما تحدثني عن اخبار عملك . اندفع الدمع الى عينيّ وأحسست كم أنا فخور بك . اني مقتنع بانك ستغدو يوما كاتبنا من الطبقة الرفيعة ، وهذا الاقتناع يقوي ايماني ، يعزز ايماني بجمال العالم . انه لجميل ان نعيش ، وسيظل جميلا » .

ان هذا النشيد الطوي لجمال العالم ، سيظل ترنيمة صلاة يومية للشاعر الذي يعشق الحياة ، حتى وهي تبدي له أظفج جوانبها فياحة . ما هم . انه من نافذة سجنه يضحك للشمس ، ويتأمل ، على جناح خاطر طائر ، كل الدنى التي يكسوها أرجوان الزنابق ، في خضرة الربيع ، وفي حقول الصيف ، حيث الثمار الذهبية فتاديل على الاغصان ، وفي نتاج الادباء الاتراك ، الذين يعززون ايمانسه بالبهاء الازلي لوجود يعطي نفسه لمن يعرف ان يأخذه ، وكذلك في الوجوه الطيبة للسجناء السياسيين الذين يتوجه اليهم برسائله ، طافحة بشوق حقيقي ، ونابضة بصوت مجلجل : ان اصمدوا ، وابدعوا ، واغزلوا من أحلام المستقبل قمصان عرس لليوم الكبير ، الآتي .

وكان هؤلاء السجناء يبررون ثقة ناظم بهم . كانت رسائله نداءات معركة يخوضونها مع أحرار العالم بجسارة مدهشة وفرح عظيم ، وكانت ، كذلك ، نجوى قلب يختزل فلوبا عامرة بالحبسة والدفع ، ونوفها ، كان الاهتمام باقل شؤونهم اثاره للاهتمام ، يعطيهم الشعور بان لهم أخوا أكبر ، أعظم ، أحسن من كل الاخوة ، لانه رفيق دربهم وزميل قضيتهم .

يقول عابدين دينو ، في مقدمته لكتاب « من الامل السى ما يجعل الانسان يبكي غضبا » :

« من المؤكد ان ما هو مكتوب ببساطة (في هذه الرسائل) مثير جدا ، أو نكتشف فيه شاعرا كبيرا متوجها باستمرار شطر الآخر ، يهتم به يوميا ، يهتم بالنجاح بكل ما يتعلق به ، بكل ما يحتاج اليه من دراهم ، وكذلك بأحدثته وبظلاله المثقوب ، ويعمل كل ما بوسعه ليسد هذا النقص .

« وتكشف رسائل ناظم عن وجه هام من تصوره للشعر ، فالغن عنده مفامرة جماعية ، اذ الشاعر ، كما الكرام الذي يعنى بكرمته ، مهتم بالحصاد المقبل ، وبما سيأتي من روايين وشعراء ورسامين من الشباب . انه يساعدهم مباشرة ، ويكوتهم ، وعندما يتقدم ، يهمل ، يعرف العالم بالذين سيصبحون أفضل كتاب تركيا .

« كان يرقص فرحا لاية بادرة تنم عن قريحة ، شأنه شأن الساحر الذي يكتشف كنزا مخبوا في الارض . وبحلف انه لا يوجد شيء مماثل لهذا في ذاكرة انسان !

« لقد اعتبر بعضهم ظواهر التساهل معهم على انها حق ابدى لهم ، في حين ان البعض الآخر ، وكانوا اكثر وعيا ، حاولوا بالعمل المفيد الا يكذبوا تفاؤل الشاعر . فكمال ظاهر ، وشبيهه في الاسم اورخان كمال ، اللذان نستشعر وجودهما في الرسائل ، اتنان من احسن الكتاب الذين كوتهم ناظم . ونكتشف كذلك وجود الصور الفلاح بالابان الذي علمه الرسم ، وهو واحد من المشهورين في تركيا ، ومن الذين عاصرهم ناظم وكانوا معه في السجن .

« ومهما يكن من أمر فاني ما ازال أرتعش لذكرى تلك الساعات والايام والسنوات التي اضاعها ناظم في سبيلنا ، عوضا عن ان يعمل فيها من اجل قصائده .

« كان كل مرة يقسم بان ما قاله كاف ، وعينا كان يقسم ، وكل مرة كان مملنا الاول يصوغ بتواضع ، ومن اجسمل المتخلفين من امثالي ، حقائق اولية ، وهو ينظاها بانه يكتشفها معنا ، اذ يلخص ، من اجلنا ، الانتقادات الماركسية المتعلقة بالفن بين الاعوام ١٩٢٠ - ١٩٥٠ ، ويشرح لنا الكثير من المسائل الفلسفية والفنية المتعلقة بالشعر والقصة والرواية » .

ويقول اورخان كمال (رشيد كمال) في كتابه « ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت » (١) في السجن :

« لم يمض على قدوم ناظم الى سجن بروصه اكثر من ساعتين ، وخلال هاتين الساعتين اصبحنا اصدقاء ، وبدأت احس بانني قد تعرفت على جميع الاشخاص القريبين الى قلبه : امه ، زوجته ، ابنه ، اخته ، ومجموعة من اصدقائه . كيف حدث هذا ؟ لا ادري ! ولمعرفة ذلك سألني : « ما دراستك ؟ » . اصبحت باردا كالثلج ، خجلت خجلا شديدا ، فهون عليّ قائلا : « يا رجس ، ما دمت لا ترغب ان تكون موظفا فما حاجتك الى الدراسة ؟ » . تم سألني : « اعرف لغة اجنبية ؟ » . اجبت : « مجرد معرفة بسيطة بالفرنسية » . قل : « ترغب في اتقانها ؟ » . واجبت : « طبعاً ! » . فشرع يحدثني عن الحرب العالمية الثانية ، وعن الاحتلال الالماني ، وعن الفلسفة ! ولما عرف انني قرأت كتبا كثيرة سألني عن اشعاري ، وطلب مني احضارها ، فاحضرتها ، وشرعت اقرأ ، لكنه علق قائلا : « يكفي .. ريك ، قصيدة رديئة » . وقال : « كل هذا الكلام ، يا اخي ، ثرثرة ، وعفوا لتعبيري ، ما الداعي لكل هذا ؟ لماذا تكتب عن اشياء لا تسبغ من صميمك ؟ » . بدأ ادم ينزل من رأسي الى قدمي ، واشعاري تتهاوى على الارض ، وانسا هو يشرح كل شيء بدفة . تكلم على « الواقعية » والواقعية الجديدة ، كان حديثا طويلا مسهبا ، لم افهم منه شيئا ، كنت احسّ بعالم كبير بنهار في داخلي ، عالم مبني على الوهم والكذب ، لم اكن مؤمنا به . وبعد ان قرأ عليّ اشعارا من دفتره الاسود الصغير ، وسألني رأبي فيهِـسا ، وغضب لانني مدحتها كثيرا ، قال : « لديك قابلية جيدة للصنعة ، وهذا واضح . لقد كنت خنسا في تقويم شعرك ، ويجب ان تعذرني لذلك . انما لا امزح في امور الصنعة .. وانطلاقا من هذه النظرة فانني اؤكد لك انك تملك خامة طيبة للشعر » . وسحب نفسا عميقا من غليونه واضاف : « اريد ان اعمل معك عن قرب .. انني اريد ان اشذب ما تكتب . اريد ان اعلمك الفرنسية اولا ، ثم نخطط للدروس الاخرى ، اذ لديك استعداد لذلك ؟ فوعده ، وتصافحنا ، وعاد يضغط على التبغ في غليونه بنشوة .

« كنت ادرس ثماني ساعات او سبعا كل يوم ، وكتب اشعارا ، لكني ما كنت اجرؤ على اطلاعه عليها . كانت اشعاره سلسلة تزخر بالمعاني الكبيرة ، بايجاز شديد ، بينما اشعاري تتخط في مناهات ، مليئة بالحسك من البداية حتى النهاية . وبعد اشهر اطلعت على اولي قصائدي وكانت بعنوان « قصة بيروت » ، فاصفى اليها بانتباه ، وطلب مني ان اقرأها ثانية ، ومن حين لآخر كان يقول : احذف هذه الكلمة ، وهذه .. او يطلب مني تغيير ترتيب الابيات ، وبعد تهذيب اشعاري على هذه الصورة ، نظرت اليها بحيرة ، اذ كانت سابقا محشوة بالخشونة والتفاهات ، فاصبحت اشعارا تذكر باشعاره » .

ان هذه الصرامة في مسألة الصنعة كما كان يقسول ، تنسرح على اشعار الاخرين بمقدار ما تنسرح على اشعاره هو . كان يريد من قرائه ان ينقدوه ، ان يبينوا له موضع الضعف والرداءة في شعره ، وكثيرا ما استجاب للنقد الصحيح ، فقير وبدل بالكلمات في فصائده ، وكثيرا ما عتب على كمال طاهر ، لانه تردد في نقد شعره بجرأة .

(١) سبقت الاشارة الى هذا المرجع .

« لقد جرحني ان اعلم انك تردت طويلا قبل ان تعرفني برأيك في اشعاري ، منذ متى تعوزك الشجاعة في ان تكتب لي انك وجدتتها رديئة ؟ حين تجد شيئا لا يرضيك فلا ينبغي ان يمنعك اي شيء من ان تجهر برأيك للذين هم اعز الناس لديك . أنت تعلم انني ، انا نفسي ، لا تاخذني رحمة - بقدر ما أستطيع - نحسو ما اكتبه . الاشفاق على اشعاري ساحس به في اليوم الذي اقتنع فيه بانني غير قادر ان اصنع خيرا منها . وهنا ستكون الشفقة التي احس بها ، بسبب من موتي الذاتي كفنان » .

صارم في نقد الشعر ، صارم في أخذ نفسه بان تصنع خيرا مما صنعت ، عامل دائب في سبيل ان يكون السجن نافعا لشيء ما ، قادر ، رغم ألم الارق ، ان يسيطر على اعصابه ، وان يعلم الناس محبة كل يوم افضل ، وكل يوم اجمل ، مكرس ايامه في سبيل تعليم من يتوسم فيهم الموهبة ، كيف يكونون كتابا جديرين بالذين هم في صفهم . لقد صاغ من سنوات السجن الطويلة فلسفة خاصة بالسجن ، تقوم على الصمود ، وعدم استهلاك النفس حسرة على ما هو خارجه ، وعلى الثبات في النضال لاجل الوطن ، والقضية ، والناس الذين هم ابناؤ الوطن وجوهر القضية :

انه لنا ،
هذا الوطن الذي يطاول شاطئ البحر الابيض ،
كراس فرس مقبلة خبا من آسيا القضية .



لتتوحد نفور البلاد فلا تفتح لغاصب ابدا
وليتنف استعباد الانسان للانسان .
هي ذي قضيتنا .
حياة حرة ، فردية ، مثل شجرة ،
رناغية ، جماعية ، مثل غابة ..
تلك هي حسرتنا .

غير ان الحسرة في سبيل حياة كهذه ، لا ينبغي ان تقلها روح التعجل ، ولا ان تراود النفس ، بسبب قسوة النفي والسجن والنشر وجميع الآلام والمصاعب ، رغبة في الخلاص الفردي ، ولو عن طريق الموت ، هذا الذي يحمل الراحة والهزيمة معا ، حين تقاربه بملء اختيارنا ، كي نتخلص من الامنا وشقائنا ونحن نرسف في القيود . ان ناظم يوجه نصائحه الى السجناء ، الى اولئك الذين يذوون مثله في الظلمة والرطوبة ، قائلا لهم : « ان قراع العدو ديننا في اضعافكم » وان على السجنين ، من اجل ذلك ، ألا يقول : « حبذا لو تارجحت كراية في طرف جبل » ، بل ان يفرز قدميه في الارض متشبها بالحياة :

تعلقك بالحياة والوطن والانسان يعني :

ان تشنق ،
او ترقد في غيابة السجن ، عشر او خمس عشرة سنة .
عليك الا تقول :
« حبذا لو تارجحت ، كراية في طرف جبل »
بل ان تفرز قدميك في الارض ، متشبها بالحياة .
قد كان لك عيش آخر في الدنيا ،
لولا ان قراع العدو دين في عنقك ،
وانك تستطيع ان تظل وحيدا ، على جنبك ،
مثل حجر في قاع بحر ،
بينما جنبك الاخر يشارك الحياة ،
بزحامها واحداثها ،
الحياة التي تقشع لها الابدان في السجن ،
وان لم تحرك ، خارجه ، ورفة شجر على الارض ،

ضمور وفتامة الجانب الداخلي ، فيزداد السجن في عيني الراقد فيه
سوادا على سواد .

ليس معنى هذا أن نزل أنفسنا ، ونحن في غيابة السجن ،
عن كل ما هو خارجه ، وأن نقع بغير تطلع ولا رجاء ، والا نسوح
بعواطفنا فيما وراء الأسلاك الشائكة ، ونقيم سورا من حولنا فلا ندعو
الى غرفتنا ، في رؤى اليقظة ، أولئك الذين احببناهم ، والذين هم
في صفنا ، والذين يشكلون المصدر لكل الهامانا . ان فعلا كهذا
يقطع صلتنا بهم هم أساس في قضيتنا وصمودنا ، هؤلاء الذين هم
(في عدد اسماء البحر ونجوم السماء) والذين تعجز فغبان
السجن عن أن تمسك روحنا أن تفرح مع أرواحهم ، بل المقصود ،
من الاستغراق في العمل ، والافبال على الحياة ، وصيانة النفس من
القلل والصدأ ، أن نجد سبيلا الى التآلف مع حياة السجن ، ونعتبرها
حياتنا لفترة طويلة ، ونقبلها ونحبها على هذا الاساس ، ونحفظ هذا
الخافق تحت الثدي الايسر أن ينقلب حجرا يثقل الصدر ، بدل أن
ينتفض ليضخ الدم حارا في عروقنا .

الوثوق ، امتلاك الوثوب على الاذى ، اكل الخبز حتى آخر
لذمة ، والضحكة العفافة ، ثم العمل ، والعمل ، والعمل ، وتعميق
الثقة بان الشمس تشرق كل يوم ، وان القيم سينجلي ، ومن الايام
السود الى الايام البيض ، سيحدث الناس الناس ، في موكب الآتي
الجليل ، كل ذلك هو العدة التي تساعدنا على غزل الفجر خيسوط
ضياء للمستقبل .

لا للحزن ، لا للعزلة ، للضجر ، وللخسوف من الوحدة .
لا للجلوس تحت أقدام جدار ، والكف على الخد ، والفكر مبلبل ،
ورصاصية الطقس مناحة في النفس . لا ، أيضا ، لكل ستارة تحجب
عنا رؤية الآفاق الترامية وراء الجدران ، ولكل صمت مقيري يحول
بيننا وبين أن نسمع زفرة انفصافير ، ونراتيل الاناشيد ، وأصوات
الذين هم صوتنا ، يحملها الاثير الينا ، ليذكرنا اننا لسنا وحدنا
في الطريق الرحب الذي تسير فيه اهم بكاملها :

لا تبق مسرأ على جدار ،

وذئك بين راحتك .

لا تضع ذئك بين راحتك .

انهض ،

وانظر ،

الى الليل الجميل في العراء كأنه بحر الجنوب

تصطفق أمواجه على نافذتك ...

تعال ،

اصغ الى النسيم ،

فهو مترع بالأصوات ،

أصوات الأرض والماء والنجم

وأصواتنا أيضا .

تعال الى النافذة ،

واصغ الى النسيم

فهو يحمل أصواتنا .

ان أصواتنا عندك ،

معك أيضا .

قولة القائل : « من كانت له أذنان للسمع فليسمع » ، تعني
ان ثمة أذانا لا تسمع . ليس بها وفر ، ولا هي مسدودة بظن ، ولكنها
لا تستطيع أن تسمع هسيس الورق في غابة ، ولا ديبب النمل في
أرض فلاة . انه الانطواء على الذات ، فعل القانطين ، والذين لا رجاء
لهم . هؤلاء ، في المناجاة المتبادلة ، لا أحبة لهم . يعجزون عن سماع
أصوات البلابل وتسايح القبرات ، ويتشققون في سوداوية تجعل
من غرفهم نواويس . هؤلاء موتى . قيامة اليعازر اقرب من قيامتهم ،

منذ أربعين يوما .

ان انتظارك الرسائل في السجن ،

وترديد المواويل ،

وفتح عينيك والحلمة في السقف ، فوقك ،

وتسمر ناظريك عليه ،

شيء حلو ولكنه خطر .

أنظر الى وجهك بين الحلاقة والآخرى ،

انس عمرك .

صن نفسك من القمل ،

ومن أمسيات الخريف أيضا .

لا تنس أكل الخبز حتى آخر لقمة ،

والضحكة المريضة ملء الفم ،

ثم من يدري ،

فقد تتخلى المرأة التي احببتها عنك .

لا تقل هذا أمر ناه .

انه يهصر المقيم في السجن .

فيصبح كأنه فصن أخضر مقطوع .

التفكير بالحديقة والورد سيء في السجن ،

أما التفكير بالجيال والامواج فشيء حسن .

أوصيك بالقراءة والكتابة دون توقف ،

وبالحياكة ،

وصنع المرايا .

ان قضاء السنوات العشر ،

أو الخمس عشرة ،

أو ما هو أكثر ،

ليس بالأمر المستحيل ،

انها تنقضي ،

شريطة ألا تسودّ الجوهرة ،

التي تحت نديك الايسر (1)

هذه التفاؤلية العملية ، المبنية على ملاحظات واقعية
موضوعية ، تكشف خبرة انسان عرف السجن والنضال كليهما ، فصاغ
خبرته في الصمود على شكل نصائح ، قد لا تكون ، اذا تبعت ، العلاج
الشافى لازمة السجنين ، كل سجين ، غير انها ، بالنسبة لسجينين
معين ، يعرف ان التزناة هي امتداد للباحة أو الشارع في الكفاح
اليومي ، جذيرة بأن تلجم في ذاته نفاذ الصبر ، والقلق ، والشكوى ،
وكل ما يجعل البعد في النفس الصمودي قصيرا ، ونجمه ، عن
طريق الممارسة والافتتاح ، على مزاوله عمل مفيد ، من أي نوع كان ،
لكي لا يستشعر الفراغ القاتل ، الذي يحرك أحاسيس الضيق والملل
والسأم ، ويدفع الى الشكوى والنواح ، فيخلق لدى السجنين أزمة
نفسية تزيد من عذابه بغير طائل .

العمل : القراءة ، الكتابة ، الحياكة ، النجارة وغيرها ،
كل ما يجعل الانسان نافعا ، وكل ما يملأ الفراغ الناهض في أعصابه
كمقرض ، هو شيء حسن بالنسبة للسجين ، وربما كانت المشاغل
التي تقام في السجنين خير حل لمشكلة الوقت الذي يتمطى ويطول مع
الفراغ ، ويهبط المرء الى درجة فقدان الشعور بالراحة . ولتسد
اختير ناظم كل ذلك ، فاوصى ، عن تجربة ، بعدم التحديق في السقف
وعند الأيام الباقية ، وبعدم التفكير بالبيت والحديقة أو انتظار
الرسائل ، لان تطلعا من هذا النوع يضني صاحبه ، ويجعله يعيش
ازدواجية حياة ، ينمو وينضج ويتلاها جانبا الخارجى على حساب

(1) هذه القصيدة ، وشذرات من قصائد أخرى قليلة ، مسن
ترجمة الاستاذ ثابت النزوي .

وقربوها من أفواههم وراحوا يقتلعونها حزما حزما ملء الإيـدي
فيبتلعونها ، الى أن انتهوا الى الرعي بلربعة أرجل كالدواب « (1) .

هكذا كان يعيش الفلاحون الاتراك . ان هذه اللوحة ، بكل ما
فيها من فسوة الشقاء الانساني ، لم تكن مبعث أسى بالنسبة لناظم
حكمت ، بل مصدر غضب ، يتحول في سلوكه الى نضال ، وفسي
شعره الى مقاومة . وكان سجنه الطويل ملحمة غير مكتوبة ، لكنها
مسهوعة جيدا ، تنداح اصداؤها في أرجاء تركيا ، وتحرض الناس ،
وبخاصة المثقفين ، على النهوض والكفاح .

حنا مينه

(١) مذكرات نيرودا ، ترجمة الدكتور محمود صبيح .

روايات

حنا مينه

الشراع والعاصفة

المصايبم الزرق

الثلج يأتي من النافذة

منشورات دار الآداب

والذين مثلهم ، أينما وجدوا ، لا يعرفون طلوع الفجر ، ولا يسرون
به ، والسجن ، بالنسبة اليهم ، حفرة للعدم ، لا ارتفاع عليها ،
فهم زواحف ، ولا أجنحة طيور .

ناظم كان مريضا . انواع الامراض التي تكاثرت عليه اكثر من
ان تحصى ، لكنها لم تبلغ ان تلوي من شكيمته . « اشعر بانني بكامل
لياقتي كمصارع ، مقاتل ، لاعب كرة قدم ، طيار ، واذا لم اتوقف
ساكنب مئة بيت في اليوم ، لكنني أضبط نفسي ، ولشعوري بانسي
ساعيش حتى ابلغ المئة عام ، ولانني لا أدرك ، هذه الايام ، اننسي
محكوم بالموت كالآخرين تماما ، فانا ارتجف ، أحيانا ، حين يخطر لي
انه قد يصيبني شيء خلال ستة أشهر ، قبل أن أتمكن من انجاز هذه
القصيدية . كم أنا سعيد يا كمال ، اذ يكون لي صديق مثلك ، أستطيع
ان أكتب اليه كل هذه الاشياء » .

محكوم بالموت ، وينسى انه كذلك . سيعيش مئة عام ،
فيا للامل العريض ! خوفه ، فقط ، الا يستطيع اكمال قصيدته ،
بسبب حادث مفاجيء ، فهو يكتب مئة بيت في اليوم . ان صاحب
القلب المعطوب ، يشعر انه مصارع ، لاعب كرة قدم ، مع انه تجاوز
الاربعمين ، فكيف تأت له جراءة ان يجهر بكل هذا التحدي في وجه
الموت من حوله ؟

ان هذا الذي كان يعني عند التسذيب ، مثل الديسمبريين
الذين كانوا يضحكون من القياصرة في المنافي ، كان يعذب جلاديه ،
باكثر مما يعذبه جلادوه ، فعل فوتشيك وهو تحت أعواد المشنقة ،
والشهادة من بابلو نيرودا ، في مذكراته التي تؤرخ ، ببساطة مذهلة ،
لحياة مذهلة في قوتها وروعتها :

« كنت على الدوام أزور في موسكو او في الريف ، شاعرا
كبيرا هو الشاعر التركي ناظم حكمت ، وهو كاتب خرافي أسطوري ،
كانت حكومة بلده القريبة عن شعبه قد سجنته طويلا .

« لقد اتهم ناظم بأنه كان يريد اثارة فتنة وتمرد في صفوف
البحرية التركية ، فادانوه بكل عقوبات جهنم . جرت المحاكمة على
ظهر بارجة عسكرية . كانوا يحكون لي كيف جعلوه يمشي حتى درجة
الانهالك على جسر الباخرة ، ومن بعد ادخلوه الى المرحاض حيث كان
الفاظ يملو اكثر من نصف متر ، ف شعر أخي الشاعر بالأغماء وخارت
فواه . كانت الرائحة الكريهة تجعله يتنقز ويرتمد ، عند ذلك فكر :
لا بد ان الجلادين يراقبونني من نقطة ما ، فهم يريدون ان يروني
أتداعي ، يريدون ان يروني تعيسا يائسا . فانبعثت قواه في أنفه
وبدا يفني ، اولا بصوت خفيض ، ومن بعد بصوت اكثر علوا ، وفي
النهاية شرع يفني ملء حنجرتة . غنى الاغاني كلها ، الغزل الذي كان
يذكره ، جميع قصائده التي نظمها ، مواويل الفلاحين ، انشائيد
شعبه النضالية ، غنى كل ما كان يعرفه ، وهكذا انتصر على الرجس
والنجاسة والعذاب . وعندما قص علي ذلك ، قلت له : « يا أخي ،
انك بهذا قد أجببت عنا جميعا ، فلم نعد نختار فيما نفضله ، فما نحن
جميعا معشر الشعراء نعرف متى يجب ان نبدأ الغناء » .

« كان يحكي لي كذلك عن الام شعبه ، عن الفلاحين الذين
يضطهدهم في فسوة سادة تركيا الاقطاعيون . كان ناظم يراهم وهم
ياتون الى السجن جماعات جماعات ، كان يراهم وهم يستبدلون التبغ
بفطمة الخبز التي كانوا يظنونها حصاة وحيدة وجراية يتيمة . اخطوا
ينظرون السى المرعى في باحة السجن بذهسول ، ومن بعد بانتباه
وتركيز ، ثم بشرهة ونهم ، وذات يوم التقطوا الحشائش والاعشاب